

بعد ما علم به ولهذا لما أنزل الله توبة كعب بن مالك وصاحبيه ذهب إليه البشير فبشره فلما دخل المسجد جاء الناس فهنؤوه. الفرق بين الحياء والإغضاء أن الحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته أو ما يكون تركه خيراً من فعله والإغضاء التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته.

رسائل الانتقاد

كلمة للناشر

بينما كنت خلال العام الفارط أرسل رائد الطرف في بعض المخطوطات العربية القديمة عثرت على كتاب صغير الحجم جميل الخط عتيقه فتأملته فوجدته لمؤلف تونسي معدود من البلغاء. وإذا كان لي ولوع شديد بالاطلاع على مآثر الأدباء من بني وطني تعلقت رغبتني بتعريف هذا التصنيف. بيد اني لما أخذت أتلو رشيق معانيه وأحبل دقائق مبانيه وجدت نقصاً فادحاً بين أوراقه أفسد عقد جملة فحل بي من ذلك قلق عظيم. ثم بعد مدة وقعت في فهرست القسم العربي من مكتبة الاسكوريال بجزيرة الأندلس على اسم مقامة تحت عدد ٥٣٦ منسوبة إلى أبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني فأنجلني خاطري وبادرت في الحال لطلب نسخة منها من بعض زملائي المستشرقين. فلما وافني صورتها وطابقتها بما لدي عاودني سروري الأول وقوي عزمي إذ كانت القطعة الأندلسية مطابقة للقسم الأول من النسخة التونسية بزيادة ما نقص. فأسرعت حينئذٍ إلى النسخ وأتممت هاته بتلك حتى كمل والحمد لله ما كنا نرغبه وهو ما نقدمه اليوم للقراء الكرام. ومن المناسب أن نذكر شيئاً عن الأصلين اللذين أخذنا عنهما. فالأول وهي النسخة التونسية تشتمل على ستين صفحة شرقية يلوح منش كل خطها أنها من القرن السابع

لكنها صعبة القراءة لانطماس الأحرف ودثور كتابتها دع عنك ما لحق الورق من العث الذي أهلك جانباً وافراً منها.

أما القطعة الأندلسية التي أكملنا بها ما ضاع من التأليف فهي تحتوي على ثمان عشرة صفحة صغيرة الحجم أندلسية الخط قديمة النسخ كما يتبين ذلك من التاريخ الذي وضعه بعض المطالعين في الصفحة الأخيرة حيث قال: طالعه في موفى سنة خمس وخمسمائة وبهذا يستدل على أن هاته القطعة كتبت زمن المؤلف مدة إقامته بالأندلس (حوالي سنة ٤٥٥) أو قريباً من عهده. ومهما كان الحال فهي أقدم من أختها التونسية إلا أنها أخصر ولا تشغل إلا على المقامة الأولى.

ويلوح لي أن مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة كتاب العنقدة الذي وضع زميله ومعاصروه الحسن بن رشيق القيرواني كما سنبينه في ترجمته. إلا أن الرسائل المعارض بها كانت أطول وأكثر مما وجدناه وأوردناه هنا. يؤيد ذلك ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للسجل الأول حيث قال: فأقيمت من هذا النحو عشرين حديثاً فالمظنون أنه يقصد بالحديث مجالسه مع الأستاذ الموهوم الذي سماه أبا الريان كما اختلق الحريري في مقاماته شخص الحارث بن همام واخترع الهذاني عيسى بن هشام. فعسى أن يساعدني الحظ بالعثور على بقية هذا التأليف النفيس إن كان في عالم الموجودات.

وقد احترمت في الاستنساخ الطريقة التي أتى عليها الأصل في الرسم وضبطه إلا ما نبهت عليه أسفل المتن مع التعاليق.

ولما كان الاعتراف بالمعروف فريضة وجب عليّ أن أرفع شكري الخالص للكاتب البليغ والباحث المدقق أخيها في الله محمد بدر الدين أفندي النعساني الذي أعانني بعلومه النيرة لإزالة بعض مشكلات النسخة التونسية كما أقدم عبارات ودادي إلى العالم المستعرب

المتمكن صديقي الأستاذ كارلو نالينو الذي أسعفني بالحصول على صور القطعة الأندلسية وهو لا يزال يفيدني بإشاراتة العننية وفكره الصائب فجزيا عني خير جزاء والله ولي التوفيق به أهتدي وإليه أنيب.

تونس // حسن حسني عبد الوهاب

ترجمة المؤلف

نبغ أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني نحو سنة ٣٩٠ من إحدى البيوتات الشريفة القادمة مع الجيش العربي الفاتح والقيروان إذ ذاك زاهية زاهرة بالعلوم رافلة بالمعارف والفنون فروى المعقول والمنقول عن أفاضل ذلك العصر كأبي الحسن القابسي وأخذ الفنون الأدبية من أساتذتها كأبي إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني ومحمد بن جعفر القزاز وغيرهما حتى برع فيها وأجاد فألحقه حينئذ المعز بن باديس الصنهاجي أمير أفريقية بديوان حاشيته لما رأى فيه من الذكاء والنجابة. وهناك التقى ابن شرف بجماعة من الكتاب البلغاء والشعراء الظرفاء الذين كان يجمعهم املك مثل علي بن أبي الرحال الكاتب رئيس قلم التحرير والمراسلات وأبي علي الحسن بن رشيق صاحب العنودة ومحمد بن حبيب القلانسي وغيرهم. وطبيعي أن وجود ابن شرف في مثل هذا الوسط دعاء إلى تتبع الوجهة التي شب عليها وقوي نشاطه إذ كان أولئك الأدباء الأجلاء يتسابقون في التقرب بنظهم ونثرهم إلى الأمير رغبة في العطايا الهائلة والهبات الطائلة. وحصل على هذا التنافس والتراحم حركة فكرية أدبية لم تر أفريقية مثلاً في عصر من عصور السلطنة الإسلامية وصارت القيروان كعبة العلم التي يحج إليها العلناء من جميع أصقاع المغرب حتى من الأندلس. وقد خصص المعز لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيق فكان يلتفت تارة إلى الأول وأخرى

إلى الثاني وجرى بسبب ذلك بين هذين الأديبين مناقضات ومهاجمات رسمها كل منهما في رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لم يصل إلينا منها شيء فيما نعلم.
حكى ابن شرب المترجم له في كتابه أبكار الأفكار قال: استدعاني المعز بن باديس يوماً واستدعى أبا علي الحسن بن رشيق الأزدي وكنا شاعري حضرته وملازمي ديوانه فقال: أحب أن تضع بين يدي قطعتين في صفة الموز على قافية الغين. فضمتنا حالاً من غير أن يقف أحدهما على ما صنعه الآخر فكان الذي صنعه:

يا حبذا الموز وإسعاده ... من قبل أن يمضغه الماضغ
قد لأن حتى لا يحس له ... فالقم ملآن به فارغ
سيان قلنا مأكلاً طيب ... فيه وإلا مشرب سائغ

والذي صنعه ابن رشيق:

موز سريع أكله ... من قبل مضغ الماضغ
فما كل لا كل ... ومشرب لسائغ
فالقم من لين به = ملآن مثل فارغ
يخال وهو بالغ ... للحلق غير بالغ

فأمرنا للوقت أن نصنع فيه على حرف الذال فعملنا ولم ير أحدنا صاحبه ما عمل فكان ما عملته:

هل لك في موز إذا ... ذقناه قلنا حبذا
فيه شراب وغذا ... يربك كالماء القذى
لومات من تلذذا ... به لقليل ذا بدا

وما عمله ابن رشيق:

لله موز لذيد ... يعيده المستعيد

فواكه وشراب ... به يداوي الوقيد

ترى القذى العين فيه ... كما يزيها النيذ

قال ابن شرف: فأنت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصد واحداً. ولقد قال من حضر ذلك اليوم ما ندري مم نعجب أمن سرعة البديهة أم من غرابة القافية أم من حسن الاتفاق.

وحكى المؤلف المترجم له أيضاً في كتابه المذكور قال: استغلانا المعز يوماً وقال أريد أن تصنعاً شعراً تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء فإني أستحسنه وقد عاب بعض الضرائر بعضاً به وكلهن قارئات كاتبات فأحب أن أريهن هذا وأدعي أنه قديم لاحتج به على من عابه وآسى به من عيب عليه. فانفرد كل منا وصنع في الوقت فكان الذي قلت:

وبنقيسية زينت بشعر ... يسير بها ما يهب الشحيح

رقيق في خدلة رداح ... خفيف مثل جسم فيه روح

حكى زغب الحدود وكل خد ... به زغب فنعشوق مليح

فإن يك صرح بلقيس زجاجاً ... فمن حلق العيون لها صروح

وكان الذي قال ابن رشيق:

يعيون بنقيسية أن رأوا لها ... كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا

وقد زادها الترغيب ملحاً كمثل ما ... يزيد حدود الغيد ترغيبها ملحا

فانتقد المعز على ابن رشيق قوله يعييون وقال: أوجدت لخصنها حجة بأن بعض الناس عابه فانظر ما ألطف هذه المناضلات وما أحلى هذه الحكايات ولولا خوف الإطالة لزدنا من هذه طرفاً تروق الخاطر.

واستمر ابن شرف على خدمة المعز إلى أن زحف عرب الصعيد من هلالين ورياح وغيرهم واستولوا على غالب القطر التونسي بعدما خربوه ودمروه واضطر الأمير المعز إلى ترك القيروان أمام تلك القبائل المتوحشة (سنة ٤٩ هـ -) وفر إلى المهدية واتخذها دار منكه وقد تبعه إليها شعراؤه وحاشيته. وفي خلاء القيروان يقول ابن شرف من قصيدة رنانة:

بعد خطوط خطبت مهجتي ... وكان وشك البين أمهارها
 ذا كبد أفلاذها حولها ... وقسنت الغربة أعشارها
 أطفالها ما سمعت بالفلا ... قط فعادت الفلا دارها
 ولا رأت أبصارها شاطناً ... ثم جلت بالنج أبصارها
 وكانت الأستار آفاقها ... فعادت الآفاق أستارها
 ولم تكن تعلنو سريراً علا ... إلا إذا وافق مقدارها
 ثم علت فوق عشور الخطأ ... ترمي به في الأرض أحجارها
 ولم تكن تلاحظها مقلّة ... لو كحلت بالشمس أشفارها
 فأصبحت لا تبقى لحظة ... إلا بأن تجمع أطمارها

وأقام ابن شرف مدة بالمهدية مع زمرة شعراء الملك يخدم الأمير المعز وابنه تميمًا إلى رحل عنها قاصداً جزيرة صقلية لما سمع عن كرم أميرها وإليها لحقه رصيفة ابن رشيق وقد قدما أنه كان وقع بينهما بالقيروان ما وقع بين جرير والفرزدق أو بين الخوارزمي وبديع

الزمان. فلما اجتمعوا بصقلية تسامحوا وأقاموا بها زمناً ثم استنهض يوماً ابن شرف رفيقه على جواز الأندلس فأنشد حينئذ ابن رشيقي البيتين المشهورين بين الخاص والعام:
 لما يزهدني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد
 ألقاب سلطنة في غير مملكة ... كالمهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد
 فأجابه ابن شرف بديهة:

ان ترمك الغربية في معشر ... قد جيل الطبع على بغضهم
 فدارهم ما دمت في دارهم ... وأرضهم ما دمت في أرضهم

واجتاز ابن شرف وحده الأندلس وسكن المرية وغيرها وتردد على ملوك طوائفها كآل عباد بميلية وغيرهم وبهذه المدينة الأخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ مسيحي) وخلف ابناً يدعى أبا الفضل جعفرًا كان أديباً مجيداً أيضاً أورد له العماد في خريدته وانفتح في قلائده قصائد وفصولاً تشهد له بطول الباع.

أما تأليف محمد بن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرخون فمنها كتاب أبكار الأفكار جمع فيه ما اختاره ونشره وهو أنفس مصنفاته (مفقود وقد يوجد منه شيء في بعض كتب الأدب). ومنها كتاب أعلام الكلام به نخب وملح (مفقود أيضاً). ثم رسائل الانتقاد والمظنون أنه ألفها بعد هجرته القطر التونسي كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها. وغيرها من هذه المصنفات الأدبية النفيسة.

وهما نحن نأتي على منتحبات نثر وشعر من كلام محمد بن شرف ليرى القارئ براعة هذا المؤلف الجليل ومكانته من الأدب.

فمن نظمه في الشوق إلى بلاده القيروان مدة إقامته بالأندلس:

يا قيروان وددت أني طائر ... فأراك رؤية باحث متأمل

يا لو شهدتك إذ رأيتك في الكرى ... كيف ارتجاع صباي بعد تكهل
 وإذا تجدد لي أخ ومنادم ... جددت ذكر أخ خليل أول
 لا كثرة الإحسان تنسي حسرتي ... هيهات تذهب علي بتعل
 لو كنت أعلم أن آخر عهدهم ... يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل
 وله في شكوى الزمان:

إني وإن عزني نيل المني لأرى ... حرص الفتى خنت زبدت على العدم
 تقلدتنى الليالي وهي مدبرة ... كأنني صارم في كف منهزم
 وأنشد في المعنى:

عتاباً عسى أن الزمان له عتبي ... وشكوى فكم شكوى ألانت له القلب
 إذا لم يكن إلا إلى الدمع راحة ... فلا زال دمع العين منهلاً سكبا
 وقال أيضاً:

وما بلوغ الأمان في مواعدها ... إلا كأشعب يرجو وعد عرقوب
 وقد تخالف مكتوب القضاء به ... فكيف لي بقضاء غير مكتوب
 ومن شعره في الحكم قوله:

احذر محاسن أوجه فقدت محاً ... سن أنفس ولو ألها أقدار
 سرج تلوح إذا نظرت فإنها ... نور يضيء وإن مسست فنار
 وقوله:

لا تسأل الناس والأيام عن خير ... هما يثانك الأخبار تطفيلاً
 ولا تعاتب على نقص الطباع أحاً ... فإن بدر السنا لم يعط تكيلاً
 لا يؤيسنك من أمر تصعبه ... فالله قد يعقب التصعب تسهلاً

بع من جفاك ولا تبخل بسنعته ... واطنّب به بدلاً إن رام تبديلاً
وصير الأرض داراً والورى رجلاً ... حتى ترى مقبلاً في الناس مقبولا

وله:

إذا صحب الفتى سعد وجد ... تحامته المكاره والخطوب
ووفاه الحبيب بغير وعد ... طفيلياً وناد له الرقيب

وله أيضاً:

يا ثاويّاً في معشر ... قد اصطنى بنارهم
إن تبك من شرارهم ... على يدي شرارهم
أو ترم من أحجارهم ... وأنت في أحجارهم
فما بقيت جارهم ... ففي هواهم جارهم

وأرضهم في أرضهم=ودارهم في دارهم

ومن كلامه في التغزل قوله في ليلة أنس:

ولقد نعمت بنينة جمد الحيا ... بالأرض فيها والسماء تذوب
جمع العشائين المصلي وانزوى ... فيها الرقيب كأنه مرقوب
والكاس كاسية القميص كأنها ... لوناً وقدراً معصم مخضوب
هي وردة في خده وبكأسها ... تحت القناني عسجد مصبوب
مني إليه ومن يديه إلى يدي ... فالشمس تطلع بيتنا وتغيب

وقوله أيضاً:

قامت تجر ذبول العصب والحبر ... ضعيفة الخطو والميثاق والنظر
تخطو فتولي الحصا من حليها نبذا ... وتخلط العنبر الوردي بالعفر

تلفتت عن طلا وسنان وابتسمت ... عن واضح مثل نور الروضة العطر
 ما لذ للعين نوم بعدما ذكرت ... ليلاً سمرناه بين الضال والسر
 تساقط الطل من فوق النحور به ... تساقط الدر في اللبات والشعر
 وله من حمرة سمية:

خليل النفس لا تخلي الزجاجا ... إذا بحر الدجى في الجو ماجا
 وجاهر في المدامة من يراني ... فما فوق البسيطة من يداجي
 أمط عنك الكرى والليل ساج ... ودعنا نلبس الظنماء ساجا
 وهات على اهتمام الروح راحاً ... يعيد هموم النفس لها اقتراجا
 إذا مريخها اتقد احمراراً ... صبينا المشتري فيها مزاجا

وله:

بكيت دماً والقاصرات سوافر ... فلاححت حدود كلهن مورّد
 وقد وقف الواشون في كل وجنة ... على محضر فيه المدامع تشهد

وله:

يقول لي العاذل في لومه ... وقوله زور وهتان
 ما وجه من أحببته قبلة ... قنت ولا قولك قرآن

وقال:

قل للعدول لو اطلعت على الذي ... عانيته أعناك ما يعنيني
 أتصدني أم للنغرام تردني ... وتلومني في الحب أم تغرني
 دعني فليست معاقباً بجنايتي ... إذ ليس دينك لي ولا لك ديني

وقال فيمن اسمه عمر:

يا أعدل الناس اسماً كم تجور على ... فؤاد مضناك بالهجران والبين
أظنهم سرقوك القاف من قمر ... فأبدلوها بعين حيفة العين
وله أيضاً:

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم ... فكأنني سبابة المتندم
وقال يمدح أستاذه الكاتب أبا الحسن علي بن أبي الرجال:
جاور علياً ولا تحفل بمحادثة ... إذ ادرعت فلا تسأل عن الأسئل
اسم حكاة المسسى في الفعال فقد ... حاز العليين من قول ومن عمل
فالمجد السيد الحر الكريم له ... كالنعت والعطف والتركيد والبدل
زان العلا وسواه شائها وكذا ... تميز الشمس في الميزان والحمل
وربما عابه ما يفخرون به ... يشنا من الخصر ما يهوى من الكفل
سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ... ملء المسامع والأفواه والمقل
ومن نظمه في أنواع شتى: قال في العود
سقى الله أرضاً أنبت عودك الذي ... زكت منه أغصان وطابت مغارس
تغني عليها الطير والعود أخضر ... وغنت عليه الغيد والعود يابس
وقال في الدرهم والدينار:

ألا رب شيء فيه من أحرف اسمه ... نواه لنا عنه وزجر وإنذار
فتنا بدينار وهما بدرهم ... وآخر ذا هم وآخر ذا نار

وقال من قصيدة في وصف سيف:
إن قلت ناراً أتدي النار ملهبة ... أو قلت ماء أيرمي الماء بالشرور
وله من أخرى:

وقد وخطت أرواحهم مفرق الدجى ... فيان لأطراف الأسنة شائبا

ومن نثرة ما كتبه مستعطفاً محبوس في دين:

قد حكمت بسجن الأشباح. وهي سجون الأرواح. فامنن علي ما شئت منهما بالسراح.
فالحبس نزاع الأرواح. والعقلة أخت القتلة. وكلاهما فقد. ومهر لنخطوب وفقد. وإنما
بينهما نفس متصاعد. وأجل متباعد. فالحق بهما ما أجلت بما عجلت. وقد أخرنا الدين.
إلى يوم الدين.

ومن منشور كلامه في أبحار الأفكار:

لما في عصر الأمس. وطفئ سراج الشمس. لاحت بروق الثغور النوامع. وجلجلت
رعود الأوتار في المسامع. وبعث محارق وابن جامع. فلم يزل ذلك دأبنا. ما أفلح سحابنا.
حتى مسأنا هجعة. وكنا نقول بالرجعة.

وله في القرابة: الوجه بين أقاربه. كالوادي بين مذابحه. تجذب مائه وتطلب ظمائه.

وفي العداوة: كم قاطعك من راضعك. وقابحك من مالحك. وناقكك من وافقك.
وناصبك من صاحبك. وحادك من وادك.

في أنواع شتى: الجود أنصر من الجنود - من بخل بماله. سمح بعرض آله - الباذل كثير
العادل - الكريم كثير الغريم - احذر الكريم إذا افتقر. واللئيم إذا اقتدر - احذر التقى
إذا أنكر. والذكي إذا فكر - المثل أحد المعين. واليأس أحد الصنعين - العشق أحد
الرقين. والسلو أحد العتقين - رفت الكلام أحد السفاحين. وموالة القبل أحد النكاحين
- جميل الرد أحد الجودين. وبقاء الذكر أحد الخنودين - طول الجنود أحد القبرين.
وبقاء الشاء أحد العنرين - بنس النصير التقصير - المتحاصر خاسر - من كثر فجره.
وجب هجره - من كرمت خصاله. وجب وصاله - سحابة صيف. وزيادة طيف -

الوسيلة جناح النجاح - رب عين إذا رأت زنت - لأكرم بمن حرم - المستلم أحزم من المستلم.

هذا ما قصدنا إيراده هنا على أن ما جمعناه من كلام هذا الأديب البارع هو أطول من ذلك وقد لاقينا صعوبات جمة في نظم ما تشئت إذ لا يوجد تأليف يحوي تراجم فضلاء القطر التونسي والله المسؤول الإعانة.

ح. ح. ع

بسم الله الرحمن الرحيم

رب أعن برحمتك

قال أبو عبد الله شرف القيرواني هذه أحاديث صنعتها مختلفة الأنواع. مؤتلفة في الأسماع. عربيات المواشم. غريبات التراجم. واختلقت فيها أخباراً فصيحاً الكلام. بديعات النظام. لها مقاصد طراف. وأسانيد طراف. يروق الصغير معناها. والكبير مغزاها. وعزوها إلى أبي الريان الصلت بن السكن من سلامان. وكان شيخاً هماً في اللسان. وبدراً ثماً في البيان. قد بقي أحقاباً. ولقي أعقاباً. ثم ألقته إلينا من باديته الأزمات. وأوردته علينا العزمات. فامتحننا من علمه بحراً جارياً. وقدحنا من فهمه زنداً وارباً. وأدرنا من بره طرفاً. واجتينا من ثمره طرفاً. ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل. وغفلة الزمان قهتيل. واحتذبت فيما ذهبت إليه. ووقع تعريض عنيده. من بث هذه الأحاديث ما رأيت الأوانل قد وضعته في كتاب كليله ودمنة فأضافوا حكمه إلى الطير الحوائم. ونطقوا به على السنة الوحش والبهائم. لتعلق به شهوات الأحداث. وتستعذب بسرّه ألفاظ الحداث. وقد نجا بذا النحو سهل بن هرون الكاتب في تأليفه كتاب السر والتعلب وهو مشهور الحكايات. بديع المراسلات. مليح الكتابات. وزور أيضاً بديع الزمان الحافظ المصنفي